٢ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

ويقول آخرون ان الترك احتفظوا بالخلافة ما استطاعت قوتهم ، ووسعت ثروتهم . فلما نكبتهم الأحداث بما نكبتهم ، وضاقت رقعة دولتهم ، عجزوا عن الاضطلاع بهذا العبء الثقيل ، والتمسك بهذه الأمانة العظيمة فتركوها كارهين

وجوابنا أن بعض زعماء الترك أشاروا بأن يدعى المسلمون الى مؤتمر عام ويقال لهم هاكم خلافتكم قد عجزنا عن حملها ، فتشاوروا بينكم ، وتبينوا أمركم ، وسنّوا للخلافة سنة تلائم زمانكم ، وتواتي أحوالكم . واتفق رجال الحكومة التركية على هذا وأعلموا به عصمت باشا وهو في لوزان . فلماذا نقض أولو الحول منهم ما أبرموه ، وسارعوا فنفضوا أيديهم من المسلمين وخلافتهم وآذنوهم أن لا أخوّة بيننا وبينكم ؟

المسلمون والتقليد

اذا فقدت أمة أمورها ، ونظرت في أحوالها ، فنفذت الى بواطنها جهد النظر الثاقب ، والروية والفكر ، ثم هداها نظرها الى أن تستبدل سنة بسنة ، وحالاً بحال ، فتلك أمة رشيدة حميدة وان أخطأها الصواب — وقل أن يخطئها — لأنها بذلت جهد الانسان في تبيّن الحق ، واجتهدت وسعها في إيثار الرشد ، ولم تأل في التريث والتمحيص والنقد المتثبت والنظر الصحيح

واذا أخذت أمة بأسباب التقليد ، وأغرمت بالمحاكاة ، كلما لاح لها لألاء من أمة عشت اليه ، وكلما سمعت نغمة قوم هامت بها ، فتلك أمة ضالة وان نقلت عن غيرها هدى ، مخطئة وان أخذت عن غيرها صواباً . ذلكم بأنها حقرت عقولها ، وأغمضت عيونها ، وأسلمت الى يد غيرها أزمّتها ؛ لم تنظر لنفسها فتأخذ وتدع ، ولم تختر بعقلها فتستحسن وتستقبح ، بل خبطت خبط عشواء ، وانطلقت كالحاطب في الظلماء . هي في ذلك قد أهدرت انسانيتها بما ألفت ارادتها واختيارها . وان استمسكت في ظاهرها بما أخذت من نظام ، واعتصمت في رأي العين بما نسخت عن غيرها من سنن ، فذلكم ظاهر ليس وراءه باطن ، ورُواء ليس وراءه حقيقة . تلكم أمة ممسوخة . وقد سمعنا أن أمماً مسخت فأنكرنا ، وقيل إنها مسخت قروداً فعجبنا ، ثم رأينا عمل بعض الناس في هذا العصر فصدّقنا

قد ابتلى كثير من المسلمين في هذا العصر بداء التقليد ، وفشا فيهم خلق العبيد ، وحرموا النظرة النقّادة ، والعزيمة النفّاذة ، والهمة الخلاّقة . رأوا سلاحهم أضعف من سلاح أوربا ، وعلمهم أقل ، ونظامهم أوهن ، فجعلوا ذلك علّة الى نبذ ما عندهم من خلق ودين وحضارة لتتحلل النفس من تكاليف الانسانية ، وتنطلق في بحبوحة هذه المدنية . وزيّن لهم الهوى أن يقيسوا الدين والأخلاق على العلوم والصناعات ، فمضوا يرون كل شيء عندهم باطلا ، وكل شيء في أوربا حقا ، فاستحسنوا أن ينبذوا كل ما عندهم ويأخذوا كل ما عند الأوربيين ، وخافوا أن يؤخذ عليهم الاستمساك بدينهم وأخلاقهم ، فتنافسوا في هجرها وتحقيرها ، فما يحافظون على رأي أو خلق إلا أن تأتيهم شهادة عليه من عالم أو كاتب أوربي ، بل هم مدينون لأهل أوربا بما عندهم من ظن حسن في حضارة الاسلام وتاريخه ، ومن زين منهم داره بفُرش عربية فانما يسميها (أريكا) ويحاكي فيها أهل أوربا وهلم جرا ، حتى الأزهريون وهم أبعد الناس عن أوربا آثروا أن يسموا الجامع الأزهر جامعة ليترجموا كلمة Université ، وسموا كل قسم من أقسامه كلية ليوافقوا كلمة College

وكم قلت وقال غيري إن المدنية الخلقية والدينية ليست كالمدنية الصناعية ، فالصناعات قائمة على علوم طبيعية لا تختلف فيها الأمم ، ولا يمتاز فيها الشرق من الغرب ؛ ليست مشتقة من نفس الانسان ، ولا صلة لها بقلبه ، فتستطيع أمة أن تأخذ عن غيرها علوم الطبيعة والكيمياء والحساب والفلك ونتائج هذه العلوم في الصناعات دون أن تغير دينها أو تبدل أخلاقها ؛ ويستطيع زنجي من السنغال أن يذهب إلى فرنسا فيتعلم الطيران أو يدخل في زمرة الجند فيصير عما قليل في البصر بآلات الطائرات ، والدربة على نظام الجيش كالفرنسي ، ولكنه

وقع تحريف في المقال السابق في كلمة « خلعة سنوسية » فكتبت قلعة سنوسية

لا يستطيع أن يغير أخلاقه وعاداته ويكون فرنسيا في خمسين سنة ؛ والحضارة النفسية هي الانسانية حقاً ، والمدنية في صميمها وهي مشتقة من نفوس الأمة تفسد بفسادها وتصلح بصلاحها

ذلكم ما ينبغي أن نفكر فيه ، ونتوفر على درسه ، فان الأمم لا تصلح على الفوضى ، ولا تسير بالأهواء والشهوات ؛ ذلكم ما يجب أن يعنى به أولو الرأي من المسلمين ليأخذوا بحُجَز أممهم أن تتهافت في هذا التقليد ، وتتردى في هذه المهالك ؛ ذلكم ما يجب أن ينهض به الشعراء والكتاب ، ليضرموا في النفوس الذليلة عزة تمنعها المحاكاة العمياء ، وكرامة تعصمها أن تسير كالعجماء . من لي في المسلمين بعشرين رجلا من كبار النفوس عظماء الهمم ، البصيرين بالمدنية الحاضرة ، ظاهرها وباطنها ، العالمين بحضارة الاسلام جليّها وخفيها ، العارفين بأدواء الأمم وأدويتها ، لينيروا الطريق في هذه الضلالات المظلمة ، والفتن المدلهمة ؟ من لي فيهم بعشرين رجلا كهذا العالم الكبير والشاعر المبدع الذي تنفخ أنفاسه الروح في الأجسام الهامدة ، والأمل في القلوب اليائسة ، الرجل المبارك محمد اقبال الذي انبعث صوته في الشرق بالحياة والهدى والعزة والكرامة ، والطموح إلى العلياء ، والسمو بالنفس إلى أعلى درجاتها ، تلك النفس الكريمة التي تسيل في شعرها حسرات ، وتتطاير في كلماتها زفرات ، فما تزال تقدح قلبها لتبعث شرارة بعد أخرى تنير الطريق الحالكة ، وتشعل النفوس الخامدة ، ذلك الرجل الحر الذي وقف من حضارة أوربا وفلسفتها موقف الناقد البصير ، يكشف عن زيوفها ويبين عن بهرجها

كم رأينا فينا علماء وأدباء وشعراء ومتفلسفين ، ولكن أكثرهم لا يفكرون ولا ينطقون إلا بما سمعوا وما قرأوا ، وهم لا يسمعون ولا يقرأون الا عن أوربا . ليس فيهم رجل حرّ يفجر في قلبه من الحياة ينبوعاً ، أو يضرم فيه من الغيرة ناراً ، ليلقي على كل قلب نضحة من هذا الماء ، وفي كل نفس جذوة من هذه النار ، ايه يا ضُلال التقليد ! وعبّاد الأصنام في القرن العشرين !

إن عند المسلمين كنوزاً سفت عليها أعاصير الزمان وقد فترت هممهم ، وانطفأت نار الغيرة في نفوسهم ، فآثروا الدعة حتى يأتي أهل أوربا يدلونهم عليها ويستخرجونها لهم ! وإن عندهم لنفائس تنادي هممهم وعزائمهم ، ولكنهم يؤثرون أن يتلقوا عن أوربا أشياءها مهيّأة في عُلب مذهّبة ! ومن ركن إلى الدعة ذلّ ، ومن آثر اليسير من الأمور وأشفق من لقاء المصاعب فهو حيّ أشبه بميت ؛ وإليكم مثلاً من مئات :

لنا شريعة جاء بها القرآن والسنة وعملت فيها قرائح المسلمين بحثاً واستنباطاً ثلاثة عشر قرناً . فما بقيت واقعة إنسانية إلا اشتق لها حكم يلائم الزمان والمكان ، فصارت هذه الشريعة جماع تجارب الأمم في عصور مختلفة وبلاد كثيرة . فلما أراد المصريون أن ينظموا القضاء عجزوا عن النظر في هذه الكنوز المدخرة ، وأشفقوا من الاضطلاع بهذا العبء الثقيل ، فأجلسوا نفراً يترجمون لهم قانون نابليون ، فتهيأ لنا قانون مختصر مرتب مفصل ، وأصبحنا نجاري فرنسا في نظامها ؛ فقد طوينا مسألة القرون في أشهر قليلة . وماذا علينا بعد ذلك أن يكون هذا القانون في دين الأمة نكراً ، وفي أخلاقها شذوذاً ، وفي أفكارها أعجوبة ، وفي جسمها شللاً ، وفي نفسها موتاً ؟ لا ضير فقد أخذنا قانون نابليون وناهيك بذلك فخراً وتمدناً . . .

لو أن في المسلمين أناسيّ يستوحون عقولهم ويستفتون قلوبهم لخلقوا لأنفسهم نظاماً ، وشرعوا لأنفسهم من دينهم قانوناً ، لو أنهم أصحاب هم لسلطوا همهم على الزمان فأسرّته ، ثم صرّفته طوع المشيئة ، ورهن الارادة ، ولما لبثوا يتململون بالعصر ومقتضياته والزمان وفرائضه ، فان الرجل الحر سيد الزمان والمكان يسخرها ولا يذل لها . أين العزائم التي تاقى الزمان بملء خطوبه هيبة ، وتردّ أحداثه بأشد منها صولة ؟ آمين ثم آمين . . .

* * *

ومما أخذ فيه المسلمون بتقليد أوربا غلوهم في النعرات القومية ، والتكاثر بالمفاخر التاريخية ، واعتزاز كل فريق بمآثره الجاهلية ، كأنهم لم يكونوا على الأحداث أعواناً ، ولم يلبثوا أربعة عشر قرناً إخواناً ! ! قيل للمصريين : أنتم أبناء الفراعين فارجعوا الى حضارة المصريين القدماء ، واعبدوا العجل لتقوموا بذلك شهداء . وقيل لأهل الشام : وأنتم يابني الفينقيين تمسكوا بتاريخ الأقدمين ، وائتوا بآبائكم إن كنتم صادقين ! وقيل للفرس : يابني الأكاسرة لقد فتح العرب بلادكم ، وأزالوا مُلككم ، وفرضوا دينهم عليكم

فانفضوا أيديكم من أخوتهم ، وردّوا اليهم دينهم ، وارجعوا الى زردشت وإن لم تعرفوه ، واقرأوا كتابه وإن لم تفهموه ، فالباطل الايرانى خير من الحق العربى ! وقيل للترك ! وأنتم يا سلالة جنكيز المقدس ، وعبدة الذئب الأطلس ، قد كانت لكم فى سيبريا حضارة ، ثم كانت لكم فى قره قروم دولة ، فارتدوا الى حضارتكم الأولى ، وانزعوا الى وثنياتكم القدامى ، ودعوا مجدكم فى الاسلام ، واكفروا بمآثره عليكم ، ومآثر آبائكم فى تاريخه

دعيت كل أمة الى جاهليتها ، فذهب المسلمون ينبشون القبور ليعتزوا بحجر قديم وعظم رميم ، ويفخروا بعلامة من حضارة ، أو أثارة من مدنية ، وغفلوا عن مجدهم فى الاسلام يرجف به المشرق والمغرب ، وتضيء به الشمس والقمر . وليس أمة اسلامية ذات مجد فى الجاهلية إلا مجدها فى الاسلام أبهى وأبهر ، وأعلى وأعظم ، ولكنها عصبيات الجاهلية ، والفتن الأوربية ، تركس الانسان فى بهيميته ، وتردّه إلى وحشيته

***

بينما يجهد عقلاء المسلمين لايقاظهم من رقدتهم ، ويحرقون أنفسهم لاشعال الحياة فيهم ، إذا « النهضة التركية الأخيرة » فقلنا حياة فى المسلمين جديدة ، ويقظة لا تلبث أن تصير شاملة . قلنا أولئك إخواننا زعماء المسلمين ينفخون فى الصور ، ليبعثوهم من القبور ؛ لعل هذه النفوس الكبيرة تخلق أمة جديدة ، أو تخترع لنا سنّة رشيدة ، تصل عزة الماضى بمجد المستقبل وتذهب بذل الحاضر ؛ إن يخلُقوا فالرجل الحر خلاق ، وإن يسبقوا فالكريم الى المعالى سباق — لا ريب أننا سنرى فيهم عمر بن الخطاب ، وهارون الرشيد ، وعبد الرحمن الناصر ، وصلاح الدين الأيوبى ، وسليمان القانونى ، ولكن فى القرن العشرين يفتحون صدورهم لعلومه ، ويتوسلون بوسائله الى الغايات الشريفة والمثل العليا التى سمى إليها المسلمون من قبل . ثم نظرنا فاذا نفخة الصور ، لا تدعو إلى النشور ، وإذا الهمم العالية تسف ، والعزائم الماضية تهن ، وإذا حياة تجفل من نفسها وتعتز بغيرها ، وإذا نهضة من المحاكاة عليلة ، وخطة من التقليد ذليلة ، قصاراها : « اقطع كل ما يربطك بالاسلام وأممه ، وأحكم كل ما يصلك بأوربا وسننها »

فانظر ماذا صنعوا انفاذا لهذه الخطة :

(له بقيـــة)

عبد الوهاب عزام

١ ـ شمس الدين السخاوى

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أتيحت لى فى الأعوام الأخيرة فرصة لدراسة شخصية بارزة تتبوأ مكانة رفيعة فى آداب مصر الاسلامية ، وفى الآداب العربية بوجه عام ، وتمثل وحدها مدرسة فكرية زاهرة ، وتمتد عبقريتها الشاملة الى عدة نواح وفنون مختلفة ، وما زال تراثها الى اليوم يكون مجموعة قوية حافلة فى تراث الأدب العربى والتفكير الاسلامى

أريد بتلك الشخصية ، شمس الدين السخاوى الذى تملأ شخصيته الحركة الأدبية المصرية زهاء نصف قرن

كان السخاوى إحدى هذه العبقريات الأدبية التى تفتحت بمصر فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) واختتمت بها مصر الاسلامية حياة أدبية باهرة سطعت مدى قرنين ؛ وكان ظهوره فى النصف الأخير من هذا القرن ، حينما أخذت عوامل الانحلال تفت فى هذا الصرح الباذخ الذى شادته دول السلاطين بمصر ، وأخذت الحركة الأدبية التى كانت فى النصف الأول من القرن التاسع فى أوج عنفها وازدهارها ، تميل الى الضعف والسقم ، وتستبدل ألوانها القوية الساطعة بألوان سطحية باهتة ؛ فكان ظهور السخاوى وتلميذه ومنافسه السيوطى فى أواخر هذا القرن نفثة أخيرة من نفثات هذه الحركة القوية التى لم تلبث أن خبت بعد ذلك وانهارت أمام الفتح العثمانى

— ١ —

ومن حسن الطالع اننا نستطيع أن ندرس شخصية السخاوى على ضوء حسن ؛ فلدينا أولاً معظم آثاره نقرأ فيها خواص تفكيره وأدبه ؛ ولدينا ترجمته لنفسه وعدة أخرى من التراجم المعاصرة ، نتتبع فيها حوادث حياته وظروف تكوينه

ولد السخاوى ، كما يحدثنا فى ترجمته لنفسه ، بمدينة القاهرة ، بحارة بهاء الدين[1] ، فى ربيع الأول سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م)

(١) كان موقع هذه الحارة على مقربة من باب الفتوح ، وكانت من الأخطاط الجليلة فى ذلك العصر (المقريزى ج ٣ ص ١)